صاخبة ، ساخرة ، كانت قد انتشلت كل الاشياء التي لم نقلها طيلة النهار من اعماقنا ، واعتقتها بصوت مرتفع ، علني ، ودفعة واحدة ، وعندئذ قال اريبه ـ بتنهد بسمة متأرجحة (اذ انه لم يتعد البسمة في حياته) للمسكين شموليك : « لقد خسرت خمسين ليرة على الاقـــل ! »

ـ « احش ليراتك الخمسين ... » ، رطن شـموليك غاضبا وهـو يتحسس خنجـــره ويغمده في جرابه ، ثم اشاح عنا ونظر بعيدا ، الى المجهول ، بينما كانت الحقول تتبخر صدى رائعا لوقع حوافر خيول من أجل الحرية ٠

ولكن سرعان ما اتضح لنا اننا كنا قد اضعنا وقتا طويلا ٠ نهضنا على غير رغبة منا وانطلقنا عائدين الى أزقة القرية ٠ فتشنا البيوت متكاسلين ٠ نظرة خاطفة هنا واخـرى هناك اسقاطا للواجب ، ونحن نعلل الخواء الذي كان قد حل بنا وكأنه ليس الا دقـات الساعة لموعد الغداء ٠ وكان شموليك ، الذي كان يسير خلفنا ببطء مقفر الروح ، اكثرنا خواء ، وعندما استعجلناه اجابنا مبتعدا عن الموضوع قائلا : «ماذا تعرفون انتم ! حصان كهذا لا نراه كل يوم ! » ثم عاد يتأمل حزنه ٠ وفي هذه الاثناء كان قد توفر لدينا بعض العرب والعربيات الذين التقطناهم هنا وهناك ، فجمعناهم وسقناهم امامنا دون ان نعيرهم اي انتباه ، سواء كان ذلك بالنسبة الى شكلهم ، او توسلاتهم ، او الى بكاء يرتفع هنا ودموع تتساقط هناك ، حتى ولا الى ذلك الذي كان قد اعد لنفسه ، لسبب ما ، علمـــا ابيض ، مما تيسر لديه ، وخرج الينا يلوح به ويتمتم خطابا ، كما لو كان رئيس بلديـة يحمل مفاتيح الاستسلام في يده ـ لم يثر فينا غير السأم ، وغضب لا يفسر ، كان يزداد بنا حدة شيئا فشيئا ، الى ان تحول الى قسمات مضطهدة على وجوهنا ، وكأننا نحـــن الذين خدعنا ، ونحن الذين اغتصبنا ـ ولسنا مستعدين للتنازل عن اي شيء ، او نسمح بأي شيء ، ومن دون ان ندري ما الذي لن نسمح به ٠

اذ من الذي كان في الواقع هناك ، غير بعض النساء واطفالهن على اذرعهن (اطفال عرب دامعون ، رائلون ، ملفعون بالاسمال والخرق) وبعضهن الاخر كان يسير متمتما ٠ كما كان بعض الشيوخ يسير بمشية جنائزية صامتة كما لو كان يسير الى يوم الديـن ٠ وآخرون من الكهول الذين كانوا يشعرون بأنهم ليسوا شيوخا بما فيه الكفاية كي يكونوا آمنين من شر ما سيحل بهم من غضب ، تعتريهم رغبة في الشرح ، وغريزة في التمرد ، تتكشف هنا وهناك في نظرة او نظرتين ٠ وكان ثمة اعمى بينهم يقوده ولد ، ربما كـان حفيده ، يسير وعيناه تجولان بذهول وفضول ، لاهيا عن الكف المبسوطة فوق كتفـــه والمصيبة النازلة فوق رأسيهما ، حتى انه كان لا يكاد ينتبه كلما تعثر بين حين واخر ، خشية ان يلهيه ذلك عنا ٠ كان كل اولئك العمي ، والعرج ، والعجز والنساء والاطفال سوية ، كما لو كانوا يطلعون من مكان ما من التوراة ، حيث تقص علينا عن شيء كهذا، لا اذكر اين ، وبالاضافة الى هذا الاصحاح من التوراة الذي كان يثقل القلب ، وصانا الى مكان مفتوح ، حيث كانت ثمة جميزة وارفة الاغصان تنتصب في وسطه ، وتحتها ، كانوا يجلسون اكداسا ، لقد شاهدنا جمهور القرويين كله مكدسا وصامتا ، كتلة هائلة وملونة ، كل الذين كانوا قد جمعوا ٠ جمهور واحد صامت ويرافق بعيونه كل ما يحدث، وبين الفينة والاخرى كان ثمة من يتأوه منهم ويقول « اخ يا رب » ٠

كان اولئك الذين احضرناهم نحـن قد وجـدوا مكانـا لهـم وتجمعوا في الحـال تحـت الشجرة ، الرجال وحدهم ، والنساء وحدهن ، واجلسوا ارداقهم بتثاقل ، ولـم يعـد